

المحاضرة -5-

عنوان المحاضرة:

2- Political and military situations

٢- الأوضاع السياسية والعسكرية

- Gorbachev policy

- سياسة غورباتشوف

محتوى المحاضرة:

٢- الأوضاع السياسية والعسكرية

أن سياسة الاتحاد السوفيتي خلال السبعينيات من القرن العشرين كانت عبارة مجموعة من التدخلات العسكرية المباشرة أو غير المباشرة والتي كانت مكلفة بالنسبة للميزانية السوفيتية، وذلك في الشرق الاوسط واسيا وأفريقيا وامريكا اللاتينية، فضلاً عن الدعم الذي تقدمه لدول أوربا الشرقية وعدد من دول العالم الثالث، كذلك تكاليف انشر القوات السوفيتية في عدد من مناطق العالم. كان ذلك كله ضمن الرغبة السوفيتية في التفوق الاستراتيجي على الولايات المتحدة وحلفائها، وان هذه السياسة هي على نمط السياسة السوفيتية المتبعة منذ خمسينيات القرن الماضي دون تطور ودون أن تعدل لتلائم مع طبيعة الاساليب الامريكية في المواجهة والتي بدأت تأخذ أسلوباً جديداً أكثر تأثيراً.

أ- فقد كانت الكلفة العالية للغزو العسكري لأفغانستان والمتمثل بالخسائر المادية المباشرة والتي ارتفعت عام ١٩٨٥ لتصل إلى (٦٠) مليار روبل فضلاً عن الخسائر غير المباشرة والتي جاءت نتيجة وقف التعاملات التجارية السوفيتية مع الغرب والتي اسهمت في تعميق الأزمة الاقتصادية.

ب- عملت الولايات المتحدة على تنشيط سباق التسلح (ولو اعلامياً) لاسيما بعد صدور مبدأ كارتر عام ١٩٨٠ الداعي إلى زيادة الإنفاق العسكري الامريكي الامر الذي ادعا السوفييت إلى الانجرار وراء هذا السباق الذي اعلن انه يشمل عسكرة الفضاء.

وفي الوقت الذي تستفيد فيه الولايات المتحدة من موضوع سباق التسلح كون ان انتاج الأسلحة ينشط الاقتصاد الأمريكي الذي يقوم على مبدأ الاقتصاد الحر، إذ انه يمتص البطالة ويزيد من تحريك عجلة الاقتصاد الأمريكي، فإنه في ذات الوقت يؤدي إلى زيادة في الأزمة الاقتصادية السوفيتية ذات التخطيط والانفاق المركزي والذي يؤثر سلبياً على ميزانية الدولة.

ج- كما عملت الولايات التي على تعميق الأزمة السوفيتية من خلال تعميق تورط الحكومة السوفيتية في المنازعات الإقليمية، إذ عملت على دعم المقاومة الأفغانية ضد الوجود السوفيتي كما دعمت حركات التمرد في اثيوبيا وموزمبيق وكمبوديا وغيرها الأمر الذي ساعد في استنزاف اكثر للقدرات العسكرية السوفيتية وبالتالي تعميق الأزمة الاقتصادية.

د- الخلاف الصيني السوفيتي ساهم هو الآخر في تردي الاقتصاد السوفيتي اذ تطلب هذا النزاع إلى انفاق الاتحاد السوفيتي اكثر من (٢٠٠) مليار روبل لإقامة البنية الاستراتيجية على طول الحدود الاسيوية للاتحاد السوفيتي البالغة أكثر من (٧٠٠٠) سبعة آلاف كيلو متر.

- سياسة غورباتشوف

كان بالإمكان استمرار تأزم الأوضاع الاقتصادية دون ان يكون هناك ردود افعال عنيفة من قبل مكونات الاتحاد السوفيتي. ذلك كون المجتمع السوفيتي قد استساغ ولفترة تمتد لأكثر من (٧٠) عام على الحكم المركزي المتشدد والذي ترسخت فيه هيمنة الحزب وتفردت بالسلطة إلى درجة بأنه لم يعد هناك من يتصور أي تهديد او خطر على وحدة البلاد وانما التركيز فقط كان على الاستعداد لصد العدوان الخارجي. وكان احتمال انفصال أي جمهورية من جمهوريات الاتحاد السوفيتي الخمسة عشر ضرباً من الخيال لا يمكن تصوره حتى جاء غورباتشوف بأفكاره الإصلاحية والتي تحوم الشكوك حول أهدافها ودوافعها والدور الخارجي فيها.

لقد عمل غورباتشوف في البدء على الموازنة بين تيارين التيار الإصلاحي الذي يدعو إلى اتخاذ خطوات جذرية لإصلاح الواقع الاقتصادي (ولكن ليس إلى الحد الذي يؤدي إلى تفكك الدولة) وبين التيار العقائدي المحافظ على الأسلوب القديم في إدارة الدولة. حتى أن بوريس يلتسين (الرئيس الروسي) علق على ذلك بقوله : " أن غورباتشوف يكتب بيده اليمنى واليسرى في آن واحد ".

لقد حدد غورباتشوف المشكلة بأنها اقتصادية أساساً وان الإصلاح الاقتصادي لا يمكن أن يأتي بثماره إلا بالإصلاح السياسي، وان هذا الإصلاح السياسي يجب أن يبدأ من قمة الهرم السياسي ألا وهو الحزب الشيوعي. وأطلق على سياسته الإصلاحية الجديدة (البيريسترويكا) أي (اعادة البناء) والتي يقوم الإصلاح فيها على صف الداخلية والخارجية.

أما على الصعيد الداخلي فقد عمل على تغيير هيكل السلطة السياسية في الاتحاد السوفيتي، اذ اجريت انتخابات مؤتمر نواب الشعب في بداية عام ١٩٨٩ والتي جرت لأول مرة بأسلوب أكثر ديمقراطية وانتخب هذا المؤتمر أعضاء مجلس السوفييت الأعلى واستحصل موافقة مجلس النواب على مجموعة من القرارات التي تخفف من سلطة الحزب على مؤسسات الدولة وخاصة العسكرية منها. كما استحصل موافقة انتخاب رئيس للاتحاد السوفيتي بصلاحيات واسعة تمكنه من معالجة الأزمة الاقتصادية الخانقة. وفقاً لهذه التعديلات فقد فاز غورباتشوف كأول رئيس له صلاحيات واسعة بنسبة (٥٩%) من مجموع اصوات النواب السوفييت.

كما جرت انتخابات لاختيار رئيس لجمهورية روسيا الاتحادية في ظل الاتحاد السوفيتي وذلك في تموز عام ١٩٩١ والذي فاز فيها (بوريس يلتسن) وهو يهودي روسي ذا ميول استقلالية عن الاتحاد السوفيتي، إذ اشار في خطاب تنصيبه امام غورباتشوف " ان روسيا العظمى تنهض من كبوتها وستصبح دولة مزدهرة ذات سيادة" مما اعتبر دعوته صريحة وجريئة للانفصال، وكان ذلك بداية لدعوات اخرى للانفصال على اساس قومي.

أما في ما يتعلق بالسياسة الخارجية

فعلى صعيد العلاقة مع الولايات المتحدة فان غورباتشوف شعر بأن تنمية العلاقة معها سوف ينعكس ايجابياً على الواقع الاقتصادي السوفيتي لذلك اتخذ مجموعة من الاجراءات العسكرية لتخفيف المواجهة في سباق التسلح.

أ- فقد أعلن غورباتشوف امام الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٧ تشرين الثاني ١٩٨٨ عن أن بلاده قلصت حجم القوات المسلحة بمقدار نصف مليون جندي أي (١٠%) من اجمالي القوات المسلحة ويشمل التقليل ايضاً المعدات العسكرية بواقع (١٠) آلاف دبابة و (١٥٠٠) وحدة مدفعية و (٨٠٠) طائرة مقاتلة. كما أعلن عن تخفيض ميزانية الدفاع بمقدار (١٤,٢) وميزانية الصناعة العسكرية بمقدار (١٩,٥%).

ب- وافق الاتحاد السوفيتي على السماح للمفتشين والمراقبين العسكريين من حلف الناتو بمراقبة المناورات العسكرية التي يجريها حلف وارسو. وهو امر لم يسبق له مثيل في تاريخ الحلف. كما أعلن في تموز عام ١٩٩١ عن تخفيض عدد القوات السوفيتية المتواجدة في الخارج فضلا عن ذلك فقد تمت الموافقة على وقف اجراء التجارب النووية تحت الارض وتفكيك منصات الصواريخ قصيرة المدى وغيرها من القرارات العسكرية التي وجدت ترحيباً بالغاً لدى الادارة الامريكية والغرب عموماً. كما حرص على تنسيق المواقف مع الولايات المتحدة فيما يتعلق بالنزاعات الإقليمية في الشرق الاوسط ولبنان وغيرها.

ج- اعلن الرئيس السوفيتي عن سحب قواته من افغانستان في ١٤ /٤/ ١٩٨٨.

د- البدء بالتعامل في علاقاته الدولية بعيداً عن المعيار الايديولوجي والمبدئي او الحرص على طبيعة النظام السياسي. ومن هذا المنطلق بدأ الاتحاد السوفيتي بإعادة علاقاته مع اسرائيل بشكل تدريجي، ولبيان عمق هذه العلاقة فقد سمح الاتحاد السوفيتي بهجرة اليهود السوفييت إلى اسرائيل، اذ وصل عدد المهاجرين عام ١٩٨٨ فقط اكثر من ٢٢ ألف مهاجر. وعندما طلبت الدول العربية وقف هذه الهجرة اشار غورباتشوف في شباط ١٩٩٠ أنه من غير الوارد فرض قيود الهجرة اليهودية، ودعا الدول العربية إلى التخلص من (عقدة المواجهة مع اسرائيل وتركيز الجهود إلى حل وسط، كما بدأ اتصالات مع العربية السعودية اذ وصل وفداً إلى الرياض لأول مرة منذ خمسين عاماً برئاسة مدير إدارة الشرق الأوسط في الخارجية السوفيتية.

لقد بدأت الاخفاقات والانتقادات والنتائج السلبية تظهر بشكل جلي نتيجة سياسة البيروستريكا التي انتهجها غورباتشوف على جميع الصعد.

أ- فقد تصاعدت الانتقادات الداخلية لسياسة غورباتشوف لإعطائه مزيد من التنازلات للولايات المتحدة، إذ صرح قائد قوات الصواريخ الاستراتيجية الجنرال يورجي ماكيموف في مقابلة متلفزة انه ليس من السهل الاقتناع بالمبادرة التي أعلنها غورباتشوف من جانب واحد حول وقف التجارب النووية تحت الأرض، وأشار جنرال آخر إلى ان الادارة الامريكية سوف تستغل مبادرات الرئيس لصالحها لأنها ستواصل بناء ترسانتها العسكرية واجراء تجاربها النووية بينما السوفييت لا يستطيعون ذلك.

ب- تزايد النفوذ الغربي في الاتحاد السوفيتي من خلال فتح ابواب القروض الاجنبية حتى اصبح الدين الخارجي ذا ارقام خيالية. وعندما بدأ الغرب بوقف هذه القروض اخذ يفرض الشروط لاستمرارها او لجدولتها او لتحديد قيمة الفوائد المترتبة عليها مقرونة بشروط سياسية واقتصادية تفرض اصلاحات جوهرية على الواقع الاقتصادي السوفيتي. الأمر الذي ابعد السوفييت عن منهجهم الماركسي فضلا عن انه عمق أزمته الداخلية.

ج- تعمق الاضطرابات الداخلية لأسباب قومية أو سياسية مثلاً:

١- وافق برلمان جمهورية لاتيفيا السوفيتية في تشرين اول ١٩٨٩ على الغاء الدور القيادي للحزب الشيوعي وانشاء وزارة خارجية خاصة بها.

٢- كما أعلن في ليتوانيا عن التعددية الحزبية وانفصال الحزب الشيوعي فيها عن الحزب الشيوعي السوفيتي، وانسحب هذا الامر على استونيا وطالبت تلك الدول بأجراء استفتاء حول الاستقلال عام ١٩٨٩.

٣- أعلن المسؤولون في جمهورية أذربيجان السوفيتية انهم في حالة حرب مع ارمينيا السوفيتية الأمر الذي دعا القوات السوفيتية تدعمها الدبابات والمصفحات لاقتحام مدينة باكو عاصمة أذربيجان لوضع حد للاضطرابات القومية مع الأرمن وفرض حالة الطوارئ، وقد طالب برلمان الجمهورية انسحاب القوات السوفيتية وإلا فإنه سيعلن الانفصال.

٤- جمهورية كازخستان بدأت سلسلة من التمردات الداعية للاستقلال ابتداء من عام ١٩٨٦ وتساعدت خلال السنوات اللاحقة.

٥- مصادمات مع متظاهرين في ارمينيا في تشرين اول عام ١٩٨٧.

٦- في تموز ١٩٩١ استخدم الجيش السوفيتي القنابل السامة ضد متظاهرين في جورجيا مناهضة للاتحاد السوفيتي وقتل فيها اكثر من (٢٠) شخص. لذا فقد قرر برلمان جورجيا رفض التشريعات التي تصدرها موسكو.

٧- في أكتوبر ١٩٨٩ أقر برلمان اوزبكستان اللغة الأوزبكية لغة رسمية وجاء ذلك بعد انتفاضة واسعة ضد واسعة ضد الاتحاد السوفيتي في كانون ثاني عام ١٩٨٩.

وهكذا سارت الأمور في الاتحاد السوفيتي باتجاه التفجر التنشيطي مدعوم ذلك برعاية غربية من خلال الدعم الإعلامي والسياسي الكبير لسياسة غورباتشوف الإصلاحية للنزعات الانفصالية في البلطيق والجمهوريات السوفيتية الأخرى.

وما أن حلَّ عام ١٩٩١ حتى وصلت الأمور إلى حالة من التأزم. الأمر الذي دفع عدد من المسؤولين والعسكريين السوفيت للقيام بانقلاب في يوم الاثنين ١٩ آب ١٩٩١ ضد غورباتشوف لوضع حد لسياسة البروستريكا من بينهم فيغاني بانابيف نائب الرئيس وهو شيوعي محافظ وفالتين بافلوف رئيس الوزراء وهو أحد كبار المنظرين الاقتصاديين في الاتحاد السوفيتي ووزير الداخلية بوريس برغو ومسؤول الصناعات الدفاعية ولنج باكلانوف، فضلاً عن رئيس جهاز الاستخبارات السوفيتي (كي جي بي) كريوتشكوف وعدد آخر من القادة العسكريين، وذلك بهدف إيقاف عجلة الانهيار الذي لاح بالأفق للدولة السوفيتية إلا أن هذا الانقلاب فشل بعد ثلاثة أيام من قيامه وتم اعتقال المشاركين فيه نتيجة للموقف الأمريكي والغربي المناوئ له الأمر الذي كان فشله بمثابة انتهاء لدور القادة الشيوعيين الذين هدفهم المحافظة على وحدة الاتحاد السوفيتي وأدى ذلك إلى انهيار هذه الدولة العظمى وتشظيها. ففي أواخر عام ١٩٩١ أعلنت تركمانستان (وهي جمهورية على الحدود مع افغانستان) استقلالها بعد استفتاء أُجري فيها في ١١ / ٢٦ والذي جاء نتيجته موافقة (٩٤%) من السكان على استقلال تلك الجمهورية عن الاتحاد السوفيتي.

وبعد عدة أيام صوّت الشعب الأوكراني بالموافقة عن الانفصال بنسبة (٩٠%). وأعلن الزعيم المُنتخب في اوكرانيا ليونيد كرافتشوك عن عزمه عدم توقيع أي معاهدة اتحادية مع الدولة السوفيتية.

وفي محاولة منه لتعميق حالة الانهيار في الاتحاد السوفيتي أعلن الرئيس الأمريكي جورج بوش (الأب) عن اعترافه باستقلال أوكرانيا ووعده بتطوير العلاقات معها ومع روسيا ومع أي جمهورية سوفيتية تقرر الانفصال.

في ٩ كانون أول عام ١٩٩١ أصبح تفكك الاتحاد السوفيتي أمراً واقعاً قد اجتمع رؤساء كل من روسيا واورانيا وبيلاروسيا (روسيا البيضاء) وأصدروا بياناً مهماً أعلنوا فيه أن جهود غورباتشوف في استمرار الاتحاد السوفيتي على حاله القديم قد فشلت وإن تفتت البلاد أصبح امراً واقعاً. وأشار البيان إلى قصر نظر سياسة المركز التي أدت إلى أزمة سياسية واقتصادية. وقرر القادة الثلاث ما يلي "نحن قادة الجمهوريات نُعلن إن المحادثات لاستمرار الاتحاد السوفيتي قد انتهت وإن عملية الخروج من الاتحاد وإقامة دول مستقلة أصبح أمراً واقعاً وابتداءً من توقيع الاتفاق الثلاثي فإن أنظمة وقوانين الاتحاد السوفيتي لم تعد مطبقة على أراضي الدول الموقعة للاتفاق، ويتوقف فيها نشاط هيئات الاتحاد السوفيتي". واتفقت الدول الثلاث على الإبقاء على قيادة مشتركة في المجال العسكري لاسيما موضوع السلاح النووي، كما أشار الرؤساء الثلاثة إلى أن الاتفاق مفتوح لإنضمام جمهوريات الاتحاد السوفيتي الأخرى.

في ١٢ كانون أول من عام ١٩٩١ أعلن غورباتشوف في خطاب له عن خيبة أمله من التطورات الجديدة (الاتفاق الثلاثي) وأشار إلى رغبته بالاستقالة وأكد إن مهمته الرئيسية في حياته قد انتهت.

وفي خطوات أخرى عززت الشعور بانتهاء دور الاتحاد السوفيتي كدولة إعلان كل من كازخستان، وأوزبكستان، وقرقيزيا، وطاجكستان، وتركمانستان، استعدادهم للانضمام للاتفاقية الثلاثية وتكوين كومنولث بين الجمهوريات السوفيتية. في هذه الاثناء أعلن وزير الخارجية الأمريكية جيمس بيكر: "أن الاتحاد السوفيتي لم يعد له وجود"، وأعلن خلال زيارته إلى موسكو والاجتماع مع الرئيس الروسي يلتسن (متجاوزاً الاجتماع مع غورباتشوف) عن توقيع عدة اتفاقيات مع روسيا.

في ١٢/١٧ أصدر يلتسن مرسوماً أدمج فيه وزارة الخارجية السوفيتية مع وزارة الخارجية الروسية، كما أعلن في ١٢/٢٠ عن سيطرته على الأجهزة المركزية للاستخبارات الخارجية السوفيتية (كي. جي. بي).

في ١٢/٢٢ أعلن رسمياً عن انتهاء وجود الاتحاد السوفيتي عندما وقعت (١١) جمهورية سوفييتية اتفاق (الما اتا) وهي عاصمة كازاخستان حول إقامة كومنولث الجمهوريات المستقلة وأبلغ غورباتشوف بإلغاء المؤسسة الرئاسية من خلال رسالة وجهت له عبّر فيها قادة الدول عن انتهاء وجود الاتحاد السوفيتي وشكروا فيها غورباتشوف على مساهماته الايجابية.

وأعلن إن روسيا ستأخذ مقعد الاتحاد السوفيتي في مجلس الأمن، واتفق ايضاً على ان السيطرة على الترسانة النووية ستكون بيد الرئيس الروسي بالاتفاق مع باقي رؤساء الدول المستقلة.

وفي ٢٥ كانون الأول قَدَّم غورباتشوف استقالته للرئيس الروسي بشكل رسمي وتم إنزال العلم السوفيتي الأحمر من فوق بناية الكرملن مقر السلطة الاتحادية وقامت مجموعة من الجنود بإنزال العلم ورفع العلم الروسي بدلاً عنه.

يشير المراقبون إلى برامج التهيئة المخبرانية والإعلامية في تجنيد الأشخاص اللازمين لتحقيق الهدف الأهم الذي خطط له الغرب منذ بدايات القرن العشرين في إنهاء تجربة الاتحاد السوفيتي واشترك في ذلك عدد من الأطراف من بينها داخلية وخارجية ساهمت في صنع خاتمة مثيرة للقرن العشرين.